البنيوية

مفهوم ومصطلح وتخطيط

أ د /

محمود لبدة

Scanned with CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

" البنيوية مفهوم ومصطلح وتخطيط "

هذا موضوع ، أو قضية فتح مِلَفُها مرات كثيرة ، ثم أغلق دون الظفر بطائل ، أو الحصول على جدوى ، ولاتزال علامة الاستفهام عن حقيقة هذه القضية تلوح بوضوح أمام كثير من القراء والباحثين .

والسبب فى ذلك أن الذين عمَّدوا أنفسهم للبحث فيها ثلة من الأساتذة المولعين بكل ما هو غربى ، الململمين للأفكار التى إن لاءمت طبيعة أمة وبيئتها ولغتها ، فإنها تخرب العامر ، وتقوض الثابت الراسخ ، وتعقم المخصب المنتج ، إذا تسلطت على أحاسيس وأفكار أمة أخرى .

ومن هنا فإنهم بهذه المجاراة ـ ولاأقول : المحاكاة ؛ لأن المحاكاة أول سلم الأصالة ـ دخلوا على الأدب العربى بمثل ما يدخل به الليل ، وعملوافى غير معمل ، وفتشوا فى فراغ ، وحاولوا إيجاد ما يستحيل ، فكانت النتيجة أنهم ذهبوا ، وذهب ما قالوه مع الريح ، وأُلْقِيَ به فى مزبلة التاريخ ، وكان مثله ومثلهم كدود القبر يخرج من الميت ولا يأكل إلا الميِّتَ نفسه .

وأذكر أننى قرأت عن هذا الموضوع فى مجلة " فصلية " فكانت فَصْلاً معتما مظلما هبَّ بحروره وسمومه تارة ، وجليده وزمهريره أخرى ، فأصم وأعمى وأزكم ، كل من يسمعون بأكثر

Scanned with CamScanner

من آذانهم ، ويبصرون بأكثر من عيونهم ، ويشمون بأكثر من أنوفهم .

خرجتُ من هذا الفصل بعد القراءة المتأنية ، والصبر الطويل خاوى الوفاض ، فارغ الوطاب ، لم يعلق بذاكرتى معنى ولا مفهوم ولا مصطلح ، ثم ألقيتُ به راغبا عنه آبِساً منه .

وإذا كانت الحقيقة لاتطلب من كاتب واحد ، ولايحيط بجميع أبعادها منظور فكرى معين ، وإنما تعرف بعد الاطلاع على ما كتب عنها ، والموازنة الحصيفة بين الآراء المتقابلة فيها ، فإننى - إنصافا للحق - كانت تلوح أمامى مستخفية مستحيية بعض معالم هذه القضية فى كتابات قليل من الأدباء الذين لم يَرُ تدُّوا عن الأدب العربى بعد إيمانهم به ؛ ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنهم حاولوا مجاراة التيار العام ، فكانوا كمن خلط عملا صالحا بآخر سيئاً .

ولما كنتُ لا أرضى من الغنيمة بالإياب ، ولا أقنع لها بأقل من الخلود ، ولاأعد الكاتب حينما يتناول الحقائق ليؤصلها إلا (كالنحلة التى تأتى الزهرة لحاجة فيها إلى الزهرة ، وفى الزهرة إليها . فتكسبُ الزهرةُ من النحلة اللقاحَ الذى لولاه لظلت زهرة عقيمة ؛ وتكسبُ النحلةُ من الزهرة الرحيق الذى لاحياة لها إلا به. وإذ ذاك فأخذُ الواحدة من الأخرى هو فى الواقع عطاء فى سبيل البقاء .) [1] فقد قررتُ أن ألم بمعانى وأفكار هذه القضية ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا ، وأن أهتم بالبواعث والظواهر على حد

---

(١) سبعون لميخائيل نعيمة ٢/٢٧٥ .

Scanned with CamScanner

سواء ، وأن أرسم لها خُطَّةً ، تكون مَسَاراً لأحياً ، وكشافاً هاديا فى لغتنا الشاعرة أو فى لغة الزمن كما وصفها العقاد ـ رحمه الله (لأنها تحسن التعبير عنه ، ولأنها قادرة على مسايرة الزمن فى عصرنا هذا وفيما يلى من عصور.) (١).

وهناك حقائق لابد من إيرادها قبل الدخول فى تفاصيل هذا الموضوع حتى تتكشف بواعثه ، وتستعلن مراميه .

أولها : أن أى أمة تعتمد على زاد غيرها الذى لايمتُّ إليها بأدنى سبب ، ولابوشيجة نسب ، معناه أن يظل هذا الزاد عسرا لايهضم ، وأن تظل هذه الأمة متخلفة لاتتقدم ، جامدة لاتتحرك، راجعةً القهقرى دون توقف .

وقد فطن العرب الأوائل فى عصر الترجمة الزاهر إلى هذه الحقيقة ، فأخذوا من علوم اليونان دون آدابهم ، لأنها أى [الأمة الإسلامية] (أرادت أن توسع من آفاق معرفتها وتخصب عقليتها، لكنها تَجافتْ عن الآداب كراهة أن تستعير وجدانا أجنبيا ، ومن ثَمَّ مضتْ حركة الترجمة والنقل والتعريب تغذى وجود الأمة بروافد سخية دون أن تمسخ أصالتها ، فتهيأ لها بذلك أن تحمل لواء القيادة الحضارية فى العصر الوسيط.) (٢)

ثانيها : أن أى أدب لاينطلق انطلاقته الكبرى إذا كان بمعزل عن آثار ماضيه ، ولايؤتى خير الأكل وأطيب الثمر إلا إذا رَوِىَ بعقول أبنائه التى تستقبل ثم ترسل ، وتأخذ ثم توازن أو تقارن ، وتستوعب ثم تهضم ثم تحيل كل ما هضمته شيئا جديدا فيه معنى

---

(١) اللغة الشاعرة للعقاد – صـ ٩٧ .

(٢) قيم جديدة للأدب العربى القديم والمعاصر لبنت الشاطىء – صـ١٨٩ .

Scanned with CamScanner

الأصل وزيادة تماما كما يخزن القمر ضوء الشمس ، ثم يرقه
نورا فيه معنى الأصل الذى انبثق منه وزيادة وهو اللطف والدقة،
والجمال والرقة . ولا غرو فعالم الأدب (عالم اركانه الاتساق فى
المعانى التى يجرى فيها ، والجمال فى التعبير الذى يتادى به،
والحق فى الفكر الذى يقوم عليه ، والخير فى الغرض الذى يُساق
له.) (١).

ثالثها : إن إخصاب الفكر العربى بكل جديد أمر مرغوب
فيه ، بشرط الا يكون أصلا يقاسُ عليه أدبنا ، أو يُذابُ فيه أصلنا،
وتتماع فيه شخصيتنا وكياننا ، ولو أن أدباءنا فعلوا ذلك لوجدوا
خيرا كثيرا ، ولنفع الله بهم وبعملهم ، ولكانوا " كالأرض الطيبة
قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير " كما قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم .

رابعها : نحن لانعرف فى تاريخ العالم المتحضر - إن ل
يصدق عليه وصف المتمدن - وبخاصة العصرُ الحديث أمة تطفل
على عقل أمة أخرى ، أو عرفتْ غيرها قبل أن تعرف نفسها، فا
يوجد أديب فى إيطاليا عرف " هوجو " قبل أن يعرف "دانتى
ولايوجد متفلسف ألمانى عرف "شكسبير" قبل أن يعرف " جوته
ولا يوجد مفكر فرنسى عرف " تولستوى " قبل أن يعرف
كورناى " أو غيره .

فطن الغربيون - وكنا أحق وأولى بتلك الفطنة منهم - إلى ه
الظاهرة الخطيرة فحرصوا على تربية النشىء عندهم تربي
صحيحة ، ففى مرحلة التلقى والتزود تكون لديهم وحدة التكوي

---

(١) وحى القلم للرافعى ٣/٢١٣ .

Scanned with CamScanner

الثقافى ، ثم بعد أن يُدْرِكُوا أى يَنْضِجُوا علميا وفكريا ، وفلسفيا، وثقافيا ، ويطمئنوا إلى سلامة إيمانهم بموروثهم الثقافى ، وأدبهم القومى الذى يصلح وحده لأن يكون أساساً لتكوينهم العقلى والوجدانى ، تكون مائدة الآداب الأجنبية ، والثقافات الأخرى آخر مايقدم لهم ، لإخراج سلالات جديدة من الفكر ، وعصارات حية مُقَطَّرةٍ من البيان ، وتقنيات مبتكرة فى مجالات العلم والتقدم الصناعى . (١)

خامسها : نحن لاننكر أن بيننا وبين النهضة الحديثة فى أوربا خمسة قرون ، هذه القرون الخمسة هيأت لهم السبق والتفوق فى جميع الجالات .

بيد أن هذا التخلف الذى أصابنا لايجعلنا نستسلم أو نيأس، ولابدفعنا فى الوقت نفسه إلى أن نقفز فوق طاقتنا ، أو نركب الشطط فنتعسَّفَ فى عَدْوِنَا ؛ لأن "المنبتَّ لاأرضً قطع ، ولاظهرا أبقى" كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ضربه مثلا لرجل رَكب دابته ، ثم أعمل فيها مِهْمَازَهُ حَثًّالها على السير دون توقف فنفقتْ ، فلاهو وصل إلى غايته ، ولاهو أبقى على راحلته. وإذا كان الأوربيون قد استيقظوا فى الظلام ، فالمسلمون قد ناموا فى النور ، فلم يَعُقْ هؤلاء الظلام ، ولانفع هؤلاء النور .

إن الإيمانَ بكل جديد مستحدث ، والتغنِّىَ بِكل أجنبى وافد، والنظرَ إلى كل من جعل العربية زاده ، وتراثها رصيده ، على أنه ينظر فى قفا الحياة المولّىّ ، وأمسها الدابر عند طائفة .

---

(١) راجع قيم جديدة للأدب العربى – صـ١٧٥ وما بعدها .

Scanned with CamScanner

وفقدان الثقة بكل جديد ، والوقوف فى وجه كل تطور
والتقليد إلى حد الجمود عند طائفة أخرى ، هو الذى أصاب البناء
الأدبى بكثير من التهدم والانهيار ، وأشاع جمال الحقيقة ، وتبدد
مواهب كان من الممكن الانتفاع بها ، لو أحسن توجيهها (لأن
العملية الإبداعية ، لاتقاس بغزارة الإنتاج ، ولا بكثرة الصور
الفنية ، ولابمقدار الاهتمام بالشعور الاجتماعى ، وإنما تقاس بقوة
التحويل للمعانى فى طبيعة الأديب الفنية ... ولأن الجديد فى أى
شىء من حيث كيفية شعور النفس به ، وتعلقها بأصوله المحكمة،
وضوابطه المنظمة ، وآثاره القوية ، ولالاته المستمد من إشراق
الروح وصفاتها .) (١).

سادسها : إن اللغة العربية كانت ولازالت وستظل تحتفظ
بفضل النيّرين الطاهرين كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه
وسلم - بكل مقوماتها البنائية ، ومكوناتها الأسلوبية ، وعطائها
المتميز المتجدد حتى يتأذن الله بطى البسيط .

بخلاف اللغات الأخرى التى خرجت من عباءة اللاتينية
كالإنجليزية ، والأسبانية والإيطالية ، والفرنسية .

ولكنها " أعنى اللغة العربية " - على الرغم من ذلك - كون
مفتوح ، يتصل اتصالا حميما بواقع كل عصر ، ويتعامل بطلاق
تامة مع حركة التاريخ الإنسانى فى شتى مجالاته ، ويشكل م
الكونُ اللغويُ ، مع الكون الوجودىِّ ، ضلعين لابد منهما ليكتم
بهما مع الضلع الثالث وهو الإنسانُ الإحساسُ المعبر ، والعق
المفكر ، والقلم المسطر أصول مثلث واحد .

---

(١) النقد النقدى فى تراث عبد القاهر الجرجانى لمحمود محمد لبدة - صـ ١٠٤ .

Scanned with CamScanner

هذا . ويجهل حقيقية اللغة العربية من يظن أنها قد وُضِعَتْ فما يُستَزَادُ فيها ، وأغلق بابها فما يفتح إلا لمن يأخذ من خزانتها، ويتعبد بألفاظها ، وينغلق فكريا وروحيا أمام مفرداتها ، ويُخْضِعُ كل مستحدثات الحية بما فيها من طاقات ومخترعات وتوليدات وتجديدات لها .

ويجهل حقيقة اللغة العربية أيضا من يظن قوالبها البيانية، وضوابطها البنائية ، يمكن خرقها ، أو الخروج عليها ، أو إدخال مذاهب الهزل ، وكناسة الفكر على صعيدها الطيب الطاهر ، لأن هذه المذاهب والدعاوى لابد من وضعها فى موضعها من تاريخ الآداب الإنسانية ، وموضعها الصحيح كما قال العقاد ـ رحمه الله ـ (أنها تمثل جانب السخافة الذى لابد أن يتمثل فى بيئة يباح فيها القول لكل قائل ، ولايخجل فيها العاجز من عجزه ، ولاصاحب اللجاجة من لجاجته .) [١].

ونحن نعلم أن كل هذه المذاهب الهدامة أو غير المفهومة من طفح العقول اليائسة المنهزمة المستسلمة أمام الضربات القاصمة التى خلفتها الحرب العالمية الأولى والثانية . [٢]

أما العقول القوية التى تبدد ظلام اليأس ، وتحيله نورا فإنها تؤمن برسالتها فى الحياة ،(والأديب المعانى للحياة لايكتفى برصد أحداثها أو ملاحظاتها عن بُعْد ، بل ينفعل بها ، ولايستطيع إلا أن يحكم لها أو عليها ، وأن يوحى بحلول لمشاكلها ، ويقاوم مافيها من فساد ويجابه هذا الفساد ، ولولقى فى سبيل ذلك حتفه ....

---

(١) اللغة الشاعرة للعقاد – صـ ١٧٥ .

(٢) السابق – صـ ١٧٣ – ومعارك أدبية لمحمد مندور صـ ٢٦٣ .

Scanned with CamScanner

ولما الأديب الهارب من الحياة فهو أحد اثنين : إما مستلب
يؤثر العافية ، ويخشى العطب فيناى بنفسه عن مشاكل عصره
ومآسى الحية فى شعبه ، فيهرب إلى تهاويل الخيال ، وشياطين
التاريخ ، وإما طموح مسرف يظن أنه لم يخلق لكى يبدد مواهبه
فى أوحال الحياة ومشاكلها العابرة ، بل لكى يبتدع المعالم
الإنسانية المطلقة ، والأخيلة الشعرية المجنحة .) (١).

لذلك كان تناولنا لهذا المذهب التركيبى أو النظرية التركيبية
التى نشأت ونمت فى تربة الغرب على نحو لايحول بيننا وبين
الأشعة الصادرة منها فى أصل وضعها عند الأوربيين ، ولايبخس
أى جهد فى إبراز القيم الإنسانية والفنية التى تضيف للأدب
العربى كيفا يحسب له ، لاكَمّاً يُحسب عليه .

ومن هنا تخرج المعانى عن الحدود الإقليمية ، وتتعالى فوق
المحدودية ، وتثير جانبا كبيرا منْ جوانب البناء الفنى فى العمل
الأدبى .

ومع تحفظنا على المصطلح الشائع الذى أطلق على هذه
النظرية وهو مصطلح "البنيوية" وتفضيلنا مصطلح "التركيبية"
عليه ، أرانى فى حاجة إلى شيىء من البسط والبيان فالنسب إلى
كلمة بنية "بِنْيِىّ" يجرى عليها ما يجرى على مثل "ظَبْيِىّ"
"غزوة" و "دلو" لأن الثلاثى المعتل الآخر الشبيه بالصحيح هو
ما آخره وَاواً أو يَاءً لايحذف منه شيىء عند النسب ، ولايزاد
عليه .

---

(١) معارك أدبية لمحمد مندور – ص ٢٦٧

فإذا أردنا أن ندخل كلمة "بنية" فى باب المصدر الصناعى قلنا : "بِنْيِيَّة" ولانقول : "بِنْيِوِيَّة " بحال من الأحوال .

لذلك الخطأ المشهور الذى أطلق على هذه النظرية "البنيوية " وجرى على ألسنة الباحثين ، ولاأكون مبالغا إذا قلتُ على ألسنة وأقلام فطاحل الباحثين من لغويين وأدباء ، فَضَّلتُ المصطلح الآخر "التركيبية" عليه لأن التركيب يعنى دائما البدءَ بالأسهل وهو المفردات التى تكونه ثم التدرج والانتقال بعد ذلك إلى المركب .

وفى تصورى أننا لو أطلقنا على هذه النظرية مصطلح " البنية التركيبية " لجمعنا المعنى من جميع أطرافه .

وآية ذلك أننا لو قلنا مثلا "البنية التركيبية للنحو" أو بتعبير آخر "بنية النحو التركيبية" لكان المعنى : مجموعة القوى الرئيسة، أو مجموعة الأسس التى يعتمد عليها النحويون بحيث يصح أن نصفهم بأنهم علماء بالنحو وبمسائله وهذه التركيبة أو البنية التركيبية هى :

١ـ استصحاب الأصل .

٢ـ القياس أو الحمل .

٣ـ قواعد أو ضوابط التوجيه [1].

وهذا المصطلح بهذا الإطلاق ، لايختص بعلم دون علم ، ولابفن دون فن ، وإنما يلقى بظلاله القوية ، وإيحاءاته الوامضة ، وجوانبه الوضيئة المضيئة على العلوم والفنون على حد سواء .

---

(١) راجع " الأصول " للدكتور تمام حسان – صـ ٦٥ وما بعدها .

Scanned with CamScanner

نعنى بذلك أننا حيثما وجهناه أو توجهنا به إلى أى علم أو فن أفاد وأجاد ، فلايرتد خائبا ، أو ينقلب خاسئا فى علم ، ولايستحيل إلى دائرة مغلقة ، أو ينتهى إلى درب مسدود فى فن ، ولايكون طرحا من أى رصيد ، أو إهدارا لأى ثوابت بحال من الأحوال .

ونعنى أيضا أن لهذه النظرية حضورا فاعلا على أى خريطة من خرائط الإبداع العلمى ، والفلسفى ، والأدبى ، والتربوى، فهى تحرر الفلسفة من السفسطة الفارغة ، وتخلص العلم من طفيلياته، والأدب من ترهاته ، والتربية مما يَعلَقُ بها من قشور الفكر، وحماقات التفكير .

تفرغ الفلسفة بعد ذلك لجوهر الفكرة التى تُحلِّلُها ، والأدب لتشكيلاته الجمالية ، ونظراته الكلية والجزئية ، والعلم لرضعياته الثابتة ، وأصوله الراسخه ، وبراهينه القائمة ، والتربية لمناهجها المتطورة ، وبرامجها الهادفة ، وأهدافها السامية .

أطلق هذا المصطلح أول ماأطلق على مذهب من مذاهب منهجية الفلسفة والعلوم غايته أو مُؤَدَّاه الاهتمام بالنظام العام لفكرة معينة ، أو لعدة أفكار مرتبطة ببعضها ومبنية على نحو تُفضِى أو تُسلِمُ فيه المقدمات إلى النتائج .

ثم امتدت مساحة الاستعمال لهذا المصطلح بعد ذلك ، بفعل التطور الدلالىّ فشمل علومَ اللغة عامة ، وعلمَ الأسلوب خاصة[1]

والأصل فى التطور أن يكون حركة تصاعدية إلى ما هو أحسن وأفضل ، وليس حركة انهزامية متقهقرة ، ترتد بالمعنى إ

راجع معجم مصطلحات الأدب لمجدى وهبه – صـ ٥٤٠ .

Scanned with CamScanner

الوراء ، وتهبط به إلى دركات الاستعمال التى تسلب الجميل جماله .

وشأن هذا المصطلح فى هذا التطور شأن ما يجرى على أى مصطلح يتوافر له أهم عنصرين ، وهما : الحياة ، والحركة .

عند هذا الحد كان ينبغى على كتابنا أن يقفوا ، ثم ينطلقوا بعد ذلك ليطبقوا هذه النظرية على أرض العربية الحافلة بالعطاءدون مداورة أو تكلف أو تعقيد . وفى العربية ـ لكل مَنْ أراد ـ قدرة على ضبط الحقائق العلمية ، وتوجيهها إلى غاياتها الصحيحة، ومضاعفة قواها بأساليبها الطبيعية التى هى مددها وزادها .

لم يكن هناك من بأس أن يطلعوا على كل مايتصل بهذه النظرية فى كتب وأبحاث العلماء الغربيين ، شريطة ألا ينساقوا أو ينجذبوا بحيث لايستطيعون الفكاك منها أو الخروج عليها ، أو التحول عنها .

وإنما تُصَفَّى اطلاعاتهم بعد ذلك بمصفاة عقولهم وأذواقهم وقلوبهم ، كما تُصفَّى المرئيات الحسية والعلمية ، فى العين الباصرة ، والبصيرة المبصرة .

ولكن الذى حدث غير ذلك ، فقد قرءوا حتى غدتْ عُقُولُهُمْ عُقُولَ من قرءوا لهم ، واحترفوا أو احترف كثير منهم النقل حتى صاروا خطرا أى خطر على أمتهم ولغتهم .

فإذا أردنا أن نوسِّع قاعدة العطاء لهذه النظرية بإدخالها تحت مجهر النقد ، وتشريحها بمبضع التحليل والعرض ، ووضع تخطيط جديد لها فى عالم الأدب بحيث تتخطى محدودية المعنى،

Scanned with CamScanner

وتصل فى اتجاهات متعددة ، فإن ذلك لن يتم إلا إذا كشفنا النقاب
فيها مستوى بعد مستوى ، لنصل إلى أعوارها وقممها ، وادرتاها
على محاور متعددة بعضها أعلى من بعض لتنهض بطالب العلم
إلى أعلى درجات الإبداع ، لينشر فكره فى أنحاء المعمورة
معطيا، ولايمد يده مستجديا أو مستعطيا .

وليس ممن شك فى أن الفارق كبير بين الفكر المادى الجدلى
المغمور بحماة الترابية ، وبين الفكر الممتلىء بالطمأنينة الروحية.

وليس من شك أيضا فى أن الفارق كبير بين الأخلاق
المستندة إلى روح العلم ، وبين الأخلاق المؤسسة على مبادىء
روحية ثابتة ، فالأولى محصورة فى دائرة العقل والمنظور
الحسّى، والأخرى تتخطى دائرة الإدراك العقلى والحسّى إلى قُوَى
أعمق بكثير من منطقة الحواس ، هذه القوى هى القوى النفسية
التى لاتتخدع ولاينطلى عليها الخداع ، ولاتهتز أو تتزعزع أمام
أى انهيار أو شرور .

والأولى تسحق وتدمر ، ولاتبقى ولاتذر ، والأحرى تخدم
الإنسانية ، لافرق فى ذلك بين العلم الذى يأتى بما يشبه الخوارق
من المخترعات ، والفنّ الذى لاحدود لانطلاقاته ، ولاحواجز أمام
سبحاته ، التى يكشف بها سُجُفًا مستورة غير منظورة حينا،
ويتعامل بها مع الواقع الآتىّ بمعادل موضوعى أو بواقع فنى حينا
آخر .

ومن هنا نقول : إذا كان العلم بلا ضمير خرابا للنفس ، فإن
العلم الذى يقوده الضمير عَمَارٌ للكون الطبيعى والإنسانى .

Scanned with CamScanner

هذا. والمحاور التى أدرنا عليها هذه النظرية على النحو السالف الذكر ثلاثة :

المحور الأول : نظرى مدرسى وإن شِئْتَ قل : تعليمى، وفى ضوء هذا المحور يخطو طالب العلم فيه على سنة النشوء والارتقاء من الجهل إلى المعرفة .

المحور الثانى : تطبيقى عملى .

المحور الثالث : ابتكارى إبداعى ، وفيه ينشد الباحث المثل الأعلى فى التفكير،ويتجه نحو المثل العليا التى تحتاج فى كل عصر إلى أفكار وليدة ، وأذهان جديدة .

فى المحور الأول يدرس طالب العلم كل علم من العلوم دراسة مستقلة وافية من غير استيفاء لعلم على حساب علم آخر ، ومع الاحتفاظ بالفروق الخاصة التى يتمسك بها أهل كل علم ؛ لأن لكل علم بنية وتركيبة خاصة ، ولنضرب لذلك مثالا :فاللغويون القدامى اختلفت نظرتهم إلى الشعر عن نظرة العلماء "النقاد" ، فقد ركز اللغويون بحوثهم ، وأسَّسُوا قواعد علومهم على الشعر الذى هو ديوان العرب وهذه النظرة منهم إلى الشعر لم يكن الباعث عليها كونه لغة أدبية هادفة ، تحقق الغايات الجمالية ، والنزعات الطبيعية والمثالية والواقعية ؛ وإنما من حيث كونُه اللغةَ المسموعة والمجموعة عن الفصحاء الأقحاح من العصر الجاهلى إلى نهاية القرن الثانى الهجرى ، ومن حيث كون هذه اللغة المتمثلة فى الشعر ، أو بتعبير آخر : اللغة الشعرية لها خصائص تركيبية ، قد تتجاوز عرفية الاستعمال ، وصحة التركيب .

Scanned with CamScanner

ومن هنا نشأ الخلاف بين المدرستين البصرية بزعامة أبي عمرو بن العلاء ، والكوفية بزعامة أبي جعفر محمد بن الحسن الرؤاسي شيخ الطبقة الأولى الكوفية فلجئوا إلى التوفيق تارة، وإلى التأويل أخرى ، وإلى الضرورة أو الرخصة مرة ثالثة وإلى استقلال كل فريق برأيه ، واعتداده بنفسه حتى لو خالف المسموع مرة رابعة وهكذا .

أما من حيث كونه لغة ادبية نابضة بوهج الإحساس فإنها شرب الشاعر ترنح معه شعره ، وإذا طرب تأوّدَ معه قريضه، وإذا غضب تفجرتْ معه إيقاعاته .

ومن حيث كونه تغورا فى صميم التجربة ، حتى يتهيأ المناخ النفسيُ عند الشاعر للإبداع ، فتظهر التجربة مُترعةً بنبراث الصدق والمعاناة ، حتى لوخالف الشاعر وهو يصوغها الواقع التاريخى ، أو فكّ تركيب هذا الواقع التاريخى وأعاده من جديد متخطيا بذلك حتمية الالتزام بالصدق الواقعى ، فذلك من شأن النقاد لا اللغويين وفى ضوء المثال الذى ضربناه آنفا تكون للنحو بنية تركيبية ، ولعلم اللغة هيكل تركيبى ، وللبلاغة هيكل تركيبى وهكذا .

فإذا قلنا البنية التركيبية أو الهيكل التركيبى لعلم اللغة ، فإننا نعنى بذلك أن هذا العلم باعتباره نظاما للتواصل الإنسانى يتناول اللغة تناولا شموليا من حيث الأصوات والصرف والنحو والمعجم والدلالة ؛ ولعل هذا هو السبب الذى جعل معظم الجامعات فى مصر ماعدا جامعة الأزهر ، تَعُدُّ الحاصل على درجة " الدكتوراه " فى اللغويات مؤهلا لتدريس الأصوات ، والمعاجم ، وعلم اللغة ، والنحو ، والصرف ، إيمانا منها بضرورة الربط بين

اللغة الفصيحة واللغة الحية المنطوقة ، ثم تدخل تحت اللغة الحية المنطوقة اللغة المحلية ، واللغة العامية ، واللغة العادية .

وإيمانا ـ أيضا ـ بأنَّ الدراسة الصوتية مرحلة أولية، ومقدمة لابد منها للدراسة النحوية .

وهذه الوجهة صحيحة بشرط ـ وياللَّهِ من هذا الشَّرط ـ أن يكون الأستاذ المؤهل لذلك ، قد تنوعتْ بحوثه ، وتعددت مجالات نبوغه ، حتى صار جديدا بلقب " أستاذ كرسى " وأنَّى لنا به ؟ !!

فإذا لم يتوفر هذا الشرط ، فأولى به أن يتخصص فى فرع معينٍ يثبت فيه وجوده ، ويحقق من خلاله ذاته ، وإلا أصبح كالآخذ من كل شيىء بطرف ، مِنْ غير تمكن وتعمق وإبحار .

أما جامعة الأزهر مثلا ، فإنها تسير على نظام الاستقلالية فى مجال الدراسات التخصصية ، فالدراسة الصوتية واللهجية، وكل مايتعلق باللغة مجال مستقل ومتميز تماما عن الدراسة النحوية .

ولو أن الجامعات كلها وأعنى الجامعات العربية سارتْ على هذا الخط لكانت أهدى سبيلا ؛ لأن اللغة العربية يختلف نظام دراستها عن سائر لغات العالم الحية ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى القرآن الكريم الذى رواه الألوف عن الألوف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالجانب الصوتى فى اللغة العربية مطبق فى القرآن الكريم ترتيلا قبل أن يكتب تدوينا أضف إلى ذلك أن كثيرا من النحاة

Scanned with CamScanner

كانوا قُرّاءً ، فأعانهم ذلك على كتابة الوصف الصوتى لمخارج الحروف وصفاتها .

وهكذا استطاع النحويون واللغويون أن يضعوا الأصول الثابتة ، والحقائق الخالدة ، والمعايير الصحيحة لجميع الوحدات الصوتية عن طريق القرآن الكريم وعن طريق القرآن الكريم أيضاً تربت وعمقت حاسة التدرج والترقى فى اللغة ، باعتبارها نظاماً من العلامات والرموز ، والقرائن الدالة .

وإذا قلنا البنية التركيبية أو الهيكل التركيبى لعلم البلاغة فإننا لانعنى بذلك دراسة البلاغة على الطريقة المدرسية من حيث شرح قواعدها ، وضرب أمثلة لها .

وإنما نعنى دراستها على نحو ماكتبه الإمام عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه الخالدين " دلائل الاعجاز " و "أسرار البلاغة"

ففى " دلائل الاعجاز " أرسى دعائم التعبير الفنى ، وبحث فى أصول الصورة الأدبية ، وكشف عن الأسلوب بكل خصائصه ، وأبان عن كل مايؤصل نظريته فى إعجاز القرآن الكريم مدعوما بالدليل ، مشفوعا بالبرهان ، حتى سبق بهذه النظرية عصره ، وقرأ أفكار من سيأتون بعده ، فلما جاء العصر الحديث وكتب كبار النقاد العالميين عن قضية الدلالات ، لم يخرجوا عما قاله ، ولم ينفذوا إلى أبعد مما قرره .

وفى " أسرار البلاغة " بحث فى اللفظ المفرد داخل التركيب الأدبى باعتبار أن هذه المفردات هى الجزئيات التى تتشكل منها الصورة الكلية .

Scanned with CamScanner

وبحث أيضا فى الأسلوب ، ومايتفرع عنه من صور ، ويتنوع من وجوه ، بحثاً يدل على ذوق ملهم ، وإحساس نابض بمواقع الجمال ، وقد استطاع فى هذا البحث باقتدار بارع نقل قواعد وأسس العلوم التى وضعت لتكون فى خدمة لغة القرآن الكريم ، إلى ميدانها الحقيقى ، وهو إعجاز القرآن الكريم بنظمه وقد دلّنا هذا البحث المتميز على أن (بلاغة الفن البيانى فى أسلوب القرآن الكريم هو الذى أعطاه قوة التأثير ، ويُسْرَ الفهم ، وإبداع التمثيل ، وهو الذى جعل كل وصف بمقصر عن بلوغ حقيقته ، وإدراك دقته ، وهو الذى جعل الحقائق تُدَّخَرُ ثم تنبسط وتتجلى على طريق الزمن الطويل شيئا فشيئا ، ثم تتجلى وتظهر أكثر وأكثر كلما انجلى الفكر الإنسانى عن غوامض من سنن الكون ونواميسه) (١).

المحور الثانى : تطبيقى عملى ، ومجاله الكشف عن الحقائق ، ورفض الزائف ، والبوح بأسرار السحر البيانى فى النص الأدبى ، وتصحيح الفهم الخاطىء لأى نص شعرى أو حكم نقدى ، وتصويب الخطأ أو الخلط ، وإقامته على مراشده الصحيحة ، ولن يكون ذلك كله إلا إذا توافر للأديب الناقدِ الذوقُ الذى يدله على أن الأدب الذى يقرؤه أيا كان جنسه هو الصوتُ الفنى للوجود الإنسانى والتاريخى ، يترجم عن الأفكار والعواطف، ويفتش عن الوجود ومعانيه ، ويكشف عن التاريخ ومافيه ، بأسلوب مكثف بالرمز ، محمل بالدلالة ، بالغ أقصى

---

(١) الفكر النقدى فى تراث عبد القاهر الجرجانى لمحمود محمد لبده – صـ ٢٢٤ .

Scanned with CamScanner

درجات التأثير أو هو تفوق الصناديع ، وجمجمة الأحياء الفكر
وأبواق الغرب .

وهو بذلك المحور التطبيقى لعلوم العربية عامة، والنصوص
الأدبية خاصة ذلك لأن النص الأدبى هو الذى تتحطم عل
صخرته الصلبة كل المقولات الكاذبة والإشاعات المغرضة، و
الذى يصدق أو يكذب ما يقرره علماء اللغة من جودة أو رداء
ومن قيم سامية أو هابطة .

وعلى سبيل المثال فالمقولة التى شاعت عن الأصمعى، و
قوله : " الشعر نكد لايقوى إلا فى الشر " ومقولة عبد العز
الجرجانى ، صاحب الوساطة " والدين بمعزل عن الشع
وضرب المثل بشعر حسان بن ثابت فى الجاهلية والإسلام .

كل هذا له مغزى بعيد كل البعد عما أشيع عنه من أنه د
إلى الجموح ، والفصل بين الدين والشعر .

أما مقولة الأصمعى التى شاعت وَرَوَّجَ لها كثيرون فى
والحديث بأنها دعوة إلى التسيب والانطلاق ، فهى موازنة
حالين : حال الشعر فى الجاهلية ، وحاله فى الإسلام من و
فنية محضة ، وهى تنسحب على كل فن ويندرج تحتها كل
فى كل عصر من حيث جودته ورداءته الفنية ، لامن حيث خ
وشريته .

فإذا كانت الجاهلية تمثل الشرية المحضة ، والإسلام
الخيرية المحضة ، وما قيل فى الجاهلية يتفوق فنيا على ما قي
الإسلام ، كان الحكم لما قيل فى الجاهلية ، والعكس ص

Scanned with CamScanner

والأجمل فنيا حتى لو كان فى الشر ، يتفوق على الجميل حتى لو كان فى الخير .

ذلك . لأن الشر والخير غرضان ، والغرض بذاته لايعطى جمالا أو قبحا ، ولاجودة أورداءة فى عملية الإبداع ، ولكن نوعية التعبير عن الغرض هى التى ترتفع بالشكل الفنى إلى قمة التوهج، وتتحط به إلى دركات الوضاعة الفنية ، والتشويه البيانى [١] .

وأما عبارة الجرجانى فإنه - وهو القاضى الورع - لايقصد بها الفصل بين الدين والشعر ، بمعنى أن يترك للشعراء واديهم أو أَوْدِيَتِهِمْ التى فيها يهيمون ، من غير وازع دينى يردعهم ، ولادافع خلقى يحد من جموحهم .

وإنما يعنى بها أن الدين بذاته لايوجد الفن الأجمل والأكمل، والتدين الذى هو طبيعة فى النفس لايرتبط بنوعية مايحققه الشاعر من أداء فنى ، فقد يتدين الشاعر إلى حد الشفافية ، ويبقى مع ذلك رديئا ، محصورا فى حدود إمكاناته الفكرية ، وطاقاته الأسلوبية .

وكثير من جامعات أوربا لاتلقى بها محاضرات ولادروسٌ عن العلوم التى تتصل بالأدب وإنما يختار الأستاذ النص الأدبى الممتاز ، ثم يدرس هذا النص فى ضوء العلوم التى تخدم الأسلوب من نحو وصرف ودلالة ، ونقد وبلاغة ، وتاريخ الأدب العام والخاص .

ومن هنا نقول : إن دراسة النصوص الأدبية على هذا النحو تكشف عن مدى قدرة الأستاذ على هضم العلوم واستيعابها

---

(١) قضايا نقد الشعر - ٢٨٣/٢ .

Scanned with CamScanner

وتحليلها، أو عجزه عن فهمها ، وعدم قدرته على الوفاء بحقها
فهى تكشفه على حقيقته إن كان ضعيفا ، كما يكشف المرض
الجسم الضعيف بظهور أثره عليه .

ودراسة الأسلوب فى ضوء النص الأدبى من أهم ماتركز
عليه (البنيوية) أو التركيبية الحديثة ، لأنّ رواد هذه النظرية فى
الغرب ، يعدون الأسلوب بمنزلة تعبير عن الاختيار الذى يقوم به
الكاتب أو الشاعر ، من مجموعة مّن الألفاظ والتعابير والتراكيب
الموجودة فى اللغة ، والتى تضيق وتتسع بحسب محدودية الكاتب
أو الشاعر أو انطلاقاته الفنية والفكرية والأسلوبية وهو مانسميه
المعجم الخاص بكل كاتب وشاعر .

وبذلك يخرج التعبير أو الأداء الأسلوبى عن مقررات
الاستعمال العادى للغة ولعل الذى دعاهم إلى ذلك أنهم وجدوا أن
أى شيىء ينطلق من اللغة ، فهى التىترفد الأديب من محيطها
الهادر إلى عالم الانطلاق غير المحدود .

ووجدوا أيضا أيضا أن هناك تفاعلا إيجابيا بين الشاعر
واللغة فهو من خلال قوته الأدائية ينميها ، ويضيف إليها ،
ويكسبها دلالات جديدة ، وهى هى ثابتة من حيث مفرادتها ، حتى
لو أضيف إلى رصيدها كم زاخر منها ، متغيرة بتراكيبها ووجدوا
أن السمات الأسلوبية لأى نص يمكن تحديدها من خلال تحليل
أشكاله اللفظية والنحوية والدلالية .

وإذا كان هناك خروج على قواعد اللغة وأصولها ، فإنه
لايسيىء إلى اللغة من حيث قواعدها وأصولها ، لأن اللغة أكبر

Scanned with CamScanner

من أن تطاول ، وأرسخ من أى زعزعة تَنْحَلُ بسببها بعض صورها .

لأن الصور اللغوية يتم تشكيلها فى ضوء النظام اللغوى الذى هو نسق من العلاقات الرابطة بين المثال والواقع (فاللغة نظام مثالى ، يتجاى فى مظهر واقعى) [١]. نظام مثالى أى رؤية ذهنية ، يتجلى فى مظهر واقعى أى ينعكس فى شكل فنى

وذلك يسلمنا إلى نظرية النظم التى وضع أصولها الإمام عبد القاهر الجرجانى وهى عبارة عن تركيب الألفاظ ، والتنسيق بَيْنَهَا، بحيث يأخذ بعضها بحجز بعض ، ويكون آخره بسبب وثيق من أوله ، وأى تركيب يحدث فيه تقديم أو تأخير وفصل أو وصل ، وتعريف أوتنكير ، وحذف أو إثبات ، ينشأ عنه معنى جديد يستدعيه مقتضى المقام ، فالعبرة بإفادة اللفظ المعنى فى التركيب، لأنه حينئذ جزء من كل ، وعضو فى جسم (فمتى انفصل واحد عن الآخر ، وباينه فى صحة التركيب غادر بالجسم عاهة ، تَتَخَوَّنُ محاسنه وتُعَفِّى معالم جماله.) كما قال الحاتمى وفى تصورى أن الذى أحاط هذا المفهوم بالغموض أن الذين نقلوه إلى الأدب العربى أو انتقلوا به من المجال النظرى إلى المجال التطبيقى فى الأدب العربى ، فعلواً به مافعله أنصار شعر التشكيل باللغة ، لانستطيع أن نقبض على معنى محدد ، وإنما نقبض على تشكيل جمالى كما يسمونه ، وهو عندهم تراسل سِرِّىٌّ بين أعماق الشاعر واللغة ، يختفى بل يغيب معه كل شيىء ، يغيب المعنى، ويغيب الموضوع ويظهر التشكيل فقط ، ومايستتبعه من علاقات لغوية وصوتية .

---

(١) الضرورة الشعرية صـ٨٩ وما بعدها .

(٢) ابن رشيق ٢/٩٤ .

Scanned with CamScanner

فإذا فتشت عن معنى ، أو بحثت عن دلالة ، أو نقبت عن فكرة أو موضوع لاتجد شيئا .

فإذا سألت قبل ذلك : إن الموضوع يتوارى فى ذهنية الشاعر، وإن دلالة الألفاظ والصور قد انسابت فى هذا العالم المعادل للعالم الواقعى ، والكلام على سبيل التشبيه أى الذى يشبه العالم الواقعى فى انهاره وغدرانه وأرضه ، وارتفاعاته ، وانخفاضاته .

وإذا كان بعض النقاد قد مَنَّ هذا الاتجاه مَشْيًا رقيقا رفيقا ، وحاول بما أوتى من فهم وتصور أن يوجد له واقعا على خريطة الإبداع الأدبى ، فإنه بما أوتى أيضا من فهم صائب ، وذهن متفتح، وبيان يفتق ضبابية الألفاظ الكثيفة قد استطاع أن يرتق هذا التخلق الجديد ضمن منظومة النظر فى الشعر العربى الحديث من حيث كونها [أى المنظومة] كلا متكاملا يفى كل محور فيها بما عجز عن الوفاء أو العطاء به غيره ، وهذه المحاور هى :

محور شعر الموضوع

محور شعر الرؤية

محور شعر التشكيل

والأمثلة التى ساقها الناقد الكبير دون شك مختارة ومنتقاة، لأن فى ديوان " أدونيس " من الرمزية إن جاز لنا أن نسميه شعرا رمزيا ، أو من التشكيلية إن جاز أيضا أن نسميه شعرا تشكيليا، مايطرده من ساحة الواقع الأدبى ويجعله هو وأدبه على شفا جرف ار ...

لأنه ـ من وجهة نظرى ـ نوع من الاستخفاف باللغة ، والاستهزاء بعقول القراء ويبدو أن أى شيىء يخرج على أصول البيان ، يلفت النظر ، ويسترعى الاهتمام وهذا مادعا بعض من لقبوا أنفسهم بلقب شعراء أن يستحدثوا فى اللغة تراكيب هى فى ذاتها سقطات تخل بواقع الجمال الفنى ، لأنها خالية من كل مقومات الصوابية الصحيحة ، فليس بينها ترابط ، وليست هى مخض تجربة عاشها الشاعر ، وعانى واقعها حتى خرج بها من دائرة الأحادية إلى دائرة الشمولية .

من هذه الأمثلة المنتقاة قول " أدونيس "

مزجت بين النار والثلوج

لن تفهم النيران غاياتى ولا الثلوج

وسوف أبقى غامضا أليفا

أسكن فى الأزهار والحجارة

أغيب

أستقصى

أرى

أموج

كالضوء بين السحرِ والإشارة (١).

---

(١) راجع طبيعة الشعر لمحمد العزب صـ ١٥٩ وما بعدها .

Scanned with CamScanner

المحور الثالث : هو المحور الإبداعى ، وهو خطوة نحو المثل الأعلى الذى هو بمثابة الخلاصة المركزة ، المصفاة كما تصفى الأشياء فى عين مبصرة ، ومن ثم لايدخل مجال هذا المثل إلا من أوتوا نصيبا من العلم والمعرفة ، وجمعوا بمهارة بين النظر والتطبيق ، ورزقوا مع ذلك الموهبة والإحساس التى تفتح أحداق المتلقى على عوالم جديدة من الإبداع ، وتجعل المبدع نهرا متجددا مساره ، عميقا قراره ، نميرا ماؤه ، مستطابا ريُّه ، نافعا غذاؤه .

وانطلاب الإبداع فى هذا المحور كُثُر ، فكتاب القصة والأقصوصة والملحمة ، والرواية المسرحية فى المقدمة ، لأنهم قطعوا حاجز المسافات الزمنية التى تزيد على خمسة قرون بيننا وبين الغرب ، ولأنهم جمعوا فى كتاباتهم بين جوهر الماضى وواقع الحاضر ، ولم يتغير فيما كتبوه سوى الخطوط الفنية التى حددتها أسس الأدب الموضوعى الإبداعى فى العصر الحديث .

ودور الشعراء فى هذا المحور الإبداعى لا ينبغى إغفاله ، ولاننسى أن المسرح الحديث فى مصر نهض على ما كتبه شوقى ، ومحمود غنيم ، وعزيز أباظه ....

وكِلاَ طَرَفَى الإبداع القصصى والتمثيلى النثرى ، والتمثيلى الشعرى ، لاغنى لهما عن فريق الإحاطة الواعية ، الذى يقوم بالجمع والتصنيف ، والنقد والتوجيه والتأليف .

كما أن هناك من ينهج الطرق ويشقها ، ثم يجيىء غيره .

وهناك من يُعَيِّنُ الوسائل ثم يجيىء غيره ليستخدمها ، وهناك من يرشد إلى الينبوع ، ثم يجيىء غيره ليغترف منه ، كذلك يكون العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخون مع بعضهم ، فى الأفكار التى اعتنقوها ، والآثار التى خلفوها .

وبعد : فهذه القضية وغيرها كثير يستحق أن يوضع فى غربال النقد النزيه الصادق ، ليسقط منها خبثها ، ويبقى لُبُّ لُبَابِهَا.

والناقد عليه مسئولية كبرى فى (التوجيه الفكرى للأمة، والتأثير على وجدانها العام ، وعلى وجودها المعنوى الذى هو مناط سلامتها ، وحياتها) [١] .

والكلمة القائدة لاتقل عنها قيمة ورتبة الكلمة الناقدة ، وما أحوج الأدب إلى النقد.

إن جميع المذاهب والتيارات العالمية تتسلل إلى الأدب، فتهب بالخير والشر ويختلط فيها الطيب بالخبيث ، فإذا لم يوجد الناقد الحصيف ، الذى يعرف للكلمة حقها ، وللأمانة قيمتها ، تغلب الشر على الخير ، وضاعت القيم والمثل الإنسانية الخالدة .

وإذا كان كثير من المتغربين كشفهم زيفُ نقولهم ، وسوءُ فهمهم ، فالخوف كل الخوف ممن يدسُّون السُّمَّ فى العسل .

لذلك ينبغى أن يكون الناقد ذا طبيعة تكافىء طبيعة المنقود إن لم تزد عليه ، حتى يستطيع الجوس خلال أفكاره ، والكشف عن مراميه وأبعاده .

---

١) قيم جديدة لبنت الشاطىء صـ ٢٤٠ .

Scanned with CamScanner

الطبيعى ولن الحليب الإصطناعى يحتوى على عناصر إضافية لا وجود لها فى حليب المرأة حتى أصبح الإرضاع الطبيعى فى وقت من الأوقات تقليداً من التقاليد القديمة ، وقد تنبه المشتغلون بالطب إلى أهمية لبن الأم للطفل ، فتوالت الأبحاث والدراسات الطبية لتؤكد حقيقة واحدة مفادها "حليب الأم هو الأفضل " .

ولاعجب ان نرى كبار خبراء الطب فى العالم ينشرون أبحاثهم ويكتبون المقالات العديدة عن فوائد حليب الأم وأنه ليس هناك حليب يعدل فى الوجود ذلك الحليب الذى وهبه الله لذلك المخلوق الضعيف وتوالت الصيحات من مختلف الأوساط الطبية من جامعات ومؤسسات تدعو الأمهات إلى العودة بأطفالهن إلى حليب الأم .

وتقول نشرة حديثة أصدرها قسم الصحة والأم الإجتماعى فى بريطانيا " يظل حليب الأم أفضل حليب للطفل حتى السنتين من العمر وبإمكان الأم إضافة أنواع الطعام الأخرى منذ الشهر الرابع " .

وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾ (١).

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٣ .

Scanned with CamScanner